قراءة في قصائد

جيم*

يوسف الحيدري

في إشارات التوحيدي الثماني عن الفجر والشكوى والهزيمة والحريق والموت والرؤيا والختام، علامات للوصول الى النقاء والتطهّر والتضحية في سبيل أن يكون النقاء هو شرعة المبدع الحقيقي، لذلك حين يعجز هذا النقاء عن التحقّق عبر إرهاصات الشاعر.. النَبي، فإن الموت على قارعة الطريق، وحيداً، عارياً إلّا من غطاء الحقيقة سيكون هو الطريق الى الخلود:

[آه.. يكفي
فأنا رجلٌ أدّبْتُ لساني
حتى استخفىٰ في الصمت
بقناع بنّي] (ص ١٥)

ثمّة حريق قبل الموت وعلى قارعة الطريق.. قد يكون بديلاً عنه أو مدخلاً إليه..

[احترقي تهويمة الروح وفجرَ الكلماتْ
احترقي.. ماذا جنيت من هوانا الضائع المضطربِ
إلّا دموعاً تغتدي كوردةٍ من لهبِ
أو حسرةٍ.. ما تنتهي..] (ص ١٧)

ويكاد الشاعر مرّات عديدة أن يعقد مع الحياة أكثر من وشيجة حب وانتماء.. فيطرب لبلبل ويناغي عصفوراً ويتساءل كيف يسكن الهدهد في دفء العش ويحلم بين صغاره.. في حين يضيع هو بين أوراقه الغامضة وأقنعته العديدة وفُراتِه المريب:

[أنتِ في عشّكِ الدافىء
وأنا في عذاب المقيمْ
أنتِ في عشّكِ الغامض
بين أطفالك البيض والسمرْ
بين أزهارك العاريات.. وأحلامك اللاهثةْ
وأنا بين أوراقي الغامضة
بين أقنعتي.. وفُراتي المريبْ..] ص (٤٧)

في «قيامة السيّدة» انتظار لقيام المطر الوحشي حيث تهتزّ الأرض ويفور التنّور.. ليحترق الشاعر أو يتحوّل إلى صاعقة في عرشه.. وتتوالى الصور المتنافرة الغريبة، لتشكّل اللوحة الدرامية الضاجّة باللامعقول والسحري والمتخيّل والمذهل.. فبين ضحكات النمور وبكاء القنافذ.. تبتسم الخطايا السبع في الروح.. بعد مأدبة السّيّدة تواجهنا أبجدية البحر بكل أغاريدها وسفنها البعيدة وشمسها الغائبة وأبوّتها الحانية:

[البحرُ غرّد في دمي والبحر يقتاتُ الحنينْ
مالي أراك معذّباً والموج سيّدنا الدفينْ] (ص ٥٦)

هل يكتب البحر أخيراً قصّة الخطيئة أو يفرّخ في الدم سرباً من الموتى.. أي تساؤل مدهش يخنق الشاعر.. في حين قد يحنّ البحر أحياناً أو يقسو مثل أب صارم يحمل السكّين ليذبح ابنه في حلكة ليل بهيم:

[البحرُ فرّخَ في دمي سرباً من الموتى] (ص ٦١)
[البحر أبٌ يذبحني الليلة بالسكين..] (ص ٦٩)

أي عالم رهيب من الانفعالات والعذابات والجنون يعيشه الشاعر الذي يذهلنا بصوره النادرة التي تتحدّى الحدود القصوى لميتافيزيقا

اللون والعلاقات اللامعقولة بين الأشياء. فكل ما تحت رؤية الشاعر من ظواهر كونيّة يمتزج بأحاسيسه ورؤاه الخالقة المذهلة.. فهو مع الحاضر والمستقبل.. وهو مع التاريخ حتى في تراجعاته الحلمية الغريبة التي لا تتخلّى عن المنطقي والواقعي وفي أقصى تلك الهينمات الروحية العذبة.. ها هو الشاعر يعانق فيلسوف المعرّة، رهين المحبسين في حالة صعبة من التيه:

[باسمك قُدّرتِ الأقمار منازل والأيام سنين
ومضت من خلفي مئذنة
لم أرقبها والكأس تمزّقني إرباً إربا
ألأن
الشمعةَ قد سقطت في الماء الآسن
أُولدُ من موتي مرّات
لأعذبَّ منفيّاً كل صباح؟..] (ص ٧٥)

ولا يني الشاعر يؤكّد أن بصيرة المعرّي هي الأقوى.. وحين تضيق الدنيا في صدره وتعتريه عذابات الوحدة والشعور بالانسحاق، فإنه لا يلبث أن يصرخ ويرفض.. بل ويترجّى وهو في أقصى درجات عذاباته كإنسان.. ويكاد النور هنا يجسّد هاجسه المدمّر..

[لا تتركني للريح لتنبش أيّامي
لا تتركني للموت ليلقمني الوحشة والبحر ورائي

* * *

لا تتركني للطوفان
ودمي قد أبصر خفق حمامات عادتْ
برحيق النور..] (ص ٨٠)

لقد انعكست عذابات المعرّي على الشاعر فغمره موج من اليأس لم يجد خلاصاً منه سوى النوم.. ولذا راح يبدي ضجَره من الجري وراء السنوات.. ويتكشّف لديه زيف الأشياء كلّما مرّ عام من عمره واقترب أكثر فأكثر من حافة العبث واللاجدوى وفقدان المعنى لكل ما كان يطمح إلى تحقيقه:

[أتعبنا الجري وراء السنوات
قد أتعبنا حرف كالثور الهائج، كيف نروّضهُ
بأظافرنا.. وأظافرنا مُلئت بأنين الدم وأنين الراس
نمْ
يا من أسقطتَ الوردة في البئر
يا من أسقطتَ الوردة في بئر الحراس

* * *

نمْ
لا عاصم هذي اللحظة، من أمر الناس
والناسُ نيامُ.. الناس] (ص ٨٤)

في قصيدة (الرجل) نداء حلاجي واستغاثة عميقة للخلاص من دناءة النفس وما في الصدر من غلٍّ ومقت إلى حدّ الدعوة لقيام الساعة وانهيار هذا العالم الذي طفحت القذارة فيه وانحسر النقاء والحب..

[أقم الساعةَ
سورك من حولي..
يا من باسمك يهتزّ القاع
وتغوص الطعنة في الأعماق

* * *

امنحني عينينْ
شفة ويدينْ
وانزع ما في صدري من غلٍّ وعذابْ
أقم الساعةَ
سورك من حولي..
يا مَن يتركني في الريبة
أحيا وأموتُ وأُبعثُ كي أقبرَ وسْط نباح الأموات]
(ص ٨٨ - ٨٩)

ترى.. هل الزمن يمنح الأسماء للأيام.. أم يحدث العكس فتحدِّد الأيام هوية الزمن؟ هذا الهيولي واللانهائي.. وينسج الشاعر قصائده من هذه الجزئيات.. فإذا كان يوم الأربعاء مدخلاً للخميس وهو يسبق نهاية الأسبوع.. فإن اليوم الذي يليه إنما يشكّل في فلسفة الخلق سابع أيامه.. ما دام الخلق قد تمَّ في ستة أيام.. ومنذ البدء.. بدء الديوان الشعري.. نتلمّس هذه المردودات الميثولوجية القابعة في لاوعي الشاعر.. تاريخياً ووراثياً.. وتتوهّج هذه القوانين والصور الدينية في أكثر من قصيدة للشاعر لتمنح شعره المزيد من العمق والأصالة والصدق، لذلك تجيء هذه المفردات والجمل القدسية كافتتاحيات مشرقة لقصائده..

[لو أنزلنا هذا الفجر المحموم على جبل للغيرة والشمس
لرأيتَ الماء سعيداً] (ص ٧)

[الرحمنُ
خلقَ الإنسان
علّمه ما لم يعلمْ] (ص ١٩)

ولو غادرنا هذا العالم الناضح بالإيمان الذي يمنح القصيدة خشوعاً ورهبة.. فإننا نظلّ لفترة أسارى لهذه المقاطع والصور

الشعرية الغريبة من قصيدة «الأربعاء ـ الخميس»:

[الأربعاء تناسلتْ وتمزّقتْ قطعاً ولكن الخميس
من موته يختار موضوعاً لأرسم طعنةً في الخاصرة] (ص ٩٧)

[الأربعاء تناسلتْ جثثاً بفجر الأقحوان
فمضى الخميس
في حلمه ذكرى بحارٍ ما تزالْ
تشدو قليلاً.. ثم تعوي للرمالْ] (ص ٩٧)

قصيدة ـ أساطير ـ تشكيل شعري من أربعة مقاطع.. ففي مقطع الأفاعي تلوينات رمزية.. فمرّة للشجر وأخرى للسنوات وثالثة للعاشق الباكي وثمّة أفعى لا اسم لها.. بينما الأفعى الأخيرة هي للنزهة.. أية سخرية معبَّأة بالحزن تتساقط من أنامل الشاعر وأنفاسه معاً.. في مقطع ـ الحصار ـ عوالم غريبة من الإحباط والخوف.. وكل الطموحات غير المتحقّقة

[أتقدّم نحوك يا قلبي
بأساطيلي وملائكتي وجنودي
أتقدّم أحمل سرّ الماء
وعذاب الشمس] (ص ١٠٢)

* * *

[في عرشك أكتب: حاصرني
النمر الكاسر والليل الناريّ.. وحطّمني الزلزال] (ص ١٠٢)

وتتنامى بقية المقاطع ـ الجبل والهندي ـ والرواية.. وبكل مقاطعها الجزئية لتشكّل صوراً شعرية أخّاذة:

[يا قلبي.. طفلٌ أنت
أقلامك ضاعت
وحقيبتك الخضراء
سقطت في الطين] (ص ١٠٣ ـ ١٠٤)

[وأجبتُ ورأسيْ فوق الرمح:
«خذْ
ذكرى طعنات النمر الكاسر
طعنات الوحش، الإنسان»] (ص ١٠٩)

في قصيدة ـ جيم ـ التي اتخذها الشاعر عنواناً لمجموعته.. تتفتّح الأزهار من جذع الليل ومن بين الرمال والحصى.. وتكبر لتصبح قصائد ملئية بالأوراق الوحشيّة والأثمار المرّة والأشلاء أيضاً.. وتتحوّل القصيدة إلى حكاية عن ثلاثة في دار واحدة.. الشاعر وعذاباته النائمة وآخر لا يعرفهُ.. وتبوح أشجار الليل بالأسرار..

[ماذا قالت أشجار الليل هناك
وبأيّ نسيج مقطوع الكفّين
باحت بالأسرار.. أيّة أسرار؟
ولماذا قامت تلك الجثّة شقّتْ
كتّانَ الجسد الأبيض
ندبتْ.. وَعَوتْ
لم أفهم شيئاً..] (ص ١١٥)

قصيدة ـ الثعالب ـ متفرّدة.. تخلق عالمها الخاص بها.. غير أنها تظلّ رغم ذلك واقعة في إسار التغريب والغموض والسريالي إلى حدٍّ ما:

[أقفرتْ ليلة الحب
ودمي ثعلب ميّت
أترى امرأةْ صيغ ميسمها من حنان
ثم من رئة الكُشتبان؟] (ص ١٢٠)

وتأتي قصيدة ـ طيور ـ حيث طائر الوهم لا يوحي إلّا بحقيقة غريبة..

[بهدوء أعمى
ينقر قلبي طير الوهم
يوهمني أن لا معنى
إلّا لفحيح الموتى] (ص ١٢٣)

وحين يغيب الهدهد فإن الطائر الأسود أو غراب الليل يقرأ أسماء الناس بينما يبدو طائر الموت عارياً كالتفاحة وعميقاً كالموت. أمّا طائر الشؤم فيخرج من منفاه ليحلّ في المبغى.. في قصيدة ـ كهيعص ـ تصدمنا صور غريبة شعرية ومطلسمة في الوقت نفسه..

[نخلة في دهاليز غامضة ظلّلتها السيوف
جذعها الكاف
جذرها الهاءُ والياءُ والصادْ
سعفُها العينُ.. أورقت عين] (ص ١٣٠)

في قصيدة ـ طلسم ـ وهي آخر قصائد المجموعة تتوالى الصور، كثيفة، ملوّنة.. تحمل من الترميز الشيء الكثير:

[طاءٌ
طار الطائر
واشتاق إلى تيجان النخل.. صبوات الزيتون وألحاظ الماءْ

* * *

حام الطائر
حطّ على قلب الميت أحياه

مـاذا تقـول الأسطوانـة؟

محمود علي السعيد

ماذا تقولُ الأسطوانةُ
قبل أن يسطو على القلب الصدأ
تصفرُ قمصانُ النخيلْ
قرَّرتُ أن أبقى صدىً
تتوحَّدُ الأشياءُ في ملكوتهِ
وتجنّ أشرعةُ البديلْ
قرَّرتُ أن أبقى . . .
ودقَّت ساعة الإشراقِ
لم أنقص من الكلماتِ فاصلةً
حفظتُ قصيدةَ التفجير
وحفظتُ غضبَ توهّج الأقلامِ
من جسدِ الحدائقِ زنبقَ التحرير
حفظتُ ما لاَ يحفظُ الجبناءُ
لا عاشَ الجبانُ
رسالتي أن يستقيمَ القوسُ
في شجرٍ تفرّع فيه أغصانُ اليباسِ
لتُمسك المقوَدْ
وسدىً تجاهدُ
رقصةُ الأشجار تستشري
ويصدحُ في العراء السيلْ
تشبُّ بخاطر العشَّاقِ أسئلةُ قديمة
من أين تبتدئُ الحدودُ؟
من الخراب إذا أردتَ
ولم يُرد
فصّل خريطتيَ الجديدة
فأنا المعلّقُ بين مشنقتين فالأُولى
يقولُ لي الوشاةُ خديعةً

ويقولُ لي من صدّقَ الرؤيا حقيقةْ
فأهزّ عرشَ الطقسِ من أعماقهِ
وأدقّ صدرك يا فلسطينَ الجراحِ
وأنتِ بوصلةُ الجهاتِ
إذا أضاع الله وجه اللهِ
في وطنٍ تشظّى
محمودُ لولا شمسُ كنعان الفلسطيني
ما اكتملت بلادُ الشام
ولولا القدسُ
ما كانت جرارُ القمحِ تدفقُ
لولا ثورةُ القسَّام
ولولا صرخة الأطفال في صبرا
وأسئلةُ الحجارة
ما استوت في الشمسِ أجنحةُ الغمام
محمودُ والقمرُ الفلسطينيُّ يسطعُ
فوقَ أرجاءِ المخيّمْ
وحقيبةُ الذكرى
وأوراقٌ من النارنج تخفقُ في تضاريس السلام
كرُمى لوجه الأرض، والأطفال، والقسم الجديدْ
قدَّمتُ أوراقَ اعتمادي للخلاص سفيرةَ البركان
فلتسقطْ شعاراتُ الجليدْ
من مهرجان الدم تشتعلُ القصائدْ
من عبوةِ التفجيرِ تنطلق الأساطير الجديدة
من رقعةٍ في الشمس تنبثقُ الإضاءة
من ومضةٍ في الريح ينتصبُ الجدار
من عالمٍ يمتدّ بين الجرحِ والسكينِ تبرقُ صرخةٌ دمويةٌ
لتصومَ كلُّ فصاحةِ الأسرار.

من كبوته وخطاياه . .] (ص ١٣٥)

وأخيـراً . . ومن خـلال هـذا النسيـج الهـارمـوني الشعـري الإبداعي . . فقد تجسَّد صوت الشاعر الشاب أديب كمال الـدين . . بـين عشرات الأصوات الشعـرية المتصـارعة المتـداخلة . . متميِّزاً . . قوياً . . وفي هذا شرفه الإبداعي الأصيل . .

(بغداد)

(*) جيم ـ قصـائـد للشـاعـر أديب كـمـال الـدين (صـدرت عن وزارة الثقـافـة والإعلام / دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٩).